مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(تيموثاوس ٣:٨–١٥)

يا ولدي تيطُس صادقةٌ هي الكلمةُ وإيَّاها أريدُ أن تقرِّرَ حتى يهتمَّ الذين آمنوا باللهِ في القيامِ بالأعمالِ الحسنة. فهذه هي الأعمالُ الحسنةُ والنافعة* أمَّا المباحثاتُ الهذَيانيَّةُ والأنسابُ والخصوماتُ والمماحكاتُ الناموسيَّة فاجتنبها. فإنَّها غيرُ نافعةٍ وباطِلةٌ* ورجلُ البِدعةِ بعد الإنذارِ مرَّةً وأخرى أعرِضْ عنه* عالِماً أنَّ مَن هو كذلك قد اعتسفَ وهو في الخطيئةِ يقضي بنفسهِ على نفسه* ومتى أرسلتُ إليكَ أرتِماسَ أو تيخيكوسَ فبادِرْ أن تأتيَني إلى نيكوبولِس لأنّي قد عزمتُ أن أُشتِّيَ هناك* أمَّا زيناسُ معلِّمُ الناموسِ وأبُلُّوسُ فاجتهدْ في تشييعهما متأهبين لئلاَّ يُعوزُهما شيءٌ* وليتعلَّمْ ذوونا أن يقوموا بالأعمالِ الصالِحةِ للحاجاتِ الضروريَّة حتى لا يكونوا غيرَ مثمرين* يسلِّمُ عليكَ جميعُ الذينَ معي* سلِّم على

النبي إيلياس

«أيها النبي الذي سبق فنظر أعمال الله العظيمة، إيلياس العظيم باسمه، يا من بكلمتك أوقفتَ جريان ماء السحب، تشفع من أجلنا إلى المحبّ البشر وحده».

«إن إيليا النبي، لمّا شاهد آثام الناس الكثيرة ومحبّة الله للبشر التي لا تُحدّ، احتدم غيظاً وأنشأ كلام القساوة لدى المتحنّن هاتفاً: أيها القاضي العادل، اسخط على الذين عصوك. لكنّ تحنّن الصالح لم يجنح بالكليّة لعقوبة الذين خالفوه، لأنّه على الدوام يتوقع توبة الجميع، المحبّ البشر وحده».

هذا ما نرتله في خدمة سَحَر عيد النبي إيلياس، وهو ما يُعرف بالقنداق والبيت. إلاّ أن هذين المقطعين يُشكّلان جزءاً صغيراً من مؤلّف طويل للقديس رومانوس المرنّم، وهو قنداق عيد النبي إيلياس، ويتألّف من المقدّمة (التي نسمّيها نحن القنداق) ومن ثلاثة وثلاثين بيتاً تنتهي كلّها باللازمة نفسها «المحبّ البشر وحده» (أو فقط «المحب البشر»).

يضع القديس رومانوس في قنداقه قصة النبي إيلياس بشكل صلاة، ويشدّد فيه على محبّة الله للبشر في مقابل قساوة قلب الإنسان الممثّل بالنبي إيلياس. ويظهر ذلك من البيت الأول الذي هو بمثابة ملخّص للقنداق كلّه. ففي حين يرى النبي أن الناس أثموا وعصوا الله، لم يحرّك الله ساكناً، فيغضب النبي ويطلب من الله معاقبتهم، إلاّ أن تحنّن الله هو الذي يسود في النهاية.

يبدأ القديس رومانوس بالإشارة إلى غضب النبي إيلياس على الناس الذين أخطأوا إلى الله، وقراره بأن يعاقبهم على آثامهم وتعدّياتهم بالنيابة عن الله، لأنّهم احتقروا طول أناة الله، ولم يقيموا اعتباراً لله أبي المراحم (البيت ٢). قراره هذا اصطدم بالرأفة والتسامح الإلهيين. فتكفي بعض قطرات دموع لتليّن قلب الله الحنون وتكسر قرار النبي، لأنّ صلاح الله غير متناه، والله يحبّ أولاده. يفتّش النبي عن طريقة يقيّد الله بها فيلجأ إلى القسم باسم الله (البيت ٣): «حيٌّ هو الربُّ إلهُ إسرائيلَ الذي وقفتُ أمامه، إنّه لا يكونُ طَلٌّ ولا مطرٌ في هذه السنين إلاّ عند قولي» (١ ملوك١٧:١). إلاّ أنّ موقف الله كان واضحاً: «إذا رأيتُ توبةً وجريان دموع لن أستطيع أن أمنع نفسي من فتح قلبي للناس لأنّي وحدي محبٌّ للبشر» (البيت ٤). موقف

العدد ٢٠٠٦/٢٩

الأحد ١٦ تموز

أحد آباء المجمع المسكوني الرابع

تذكار القديس الشهيد

في الكهنة أثينوجانس

اللحن الرابع

إنجيل السَحَر الخامس

الذين يُحبُّوننا في الإيمان النعمةُ معكم أجمعين آمين.

الإنجيل

(متى ٥:١٤-١٩)

قال الربُّ لتلاميذهِ أنتم نورُ العالم. لا يمكن أن تَخفى مدينةٌ واقعةٌ على جبل* ولا يوقَدُ سراجٌ ويوضَعُ تحتَ المكيالِ لكن على المنارة ليُضيءَ لجميعِ الذين في البيت* هكذا فليُضئ نورُكم قدَّامَ الناسِ ليرَوا أعمالَكم الصالحةَ ويُمجِّدوا أباكم الذي في السموات. لا تظنُّوا أنّي أتيتُ لأحُلَّ الناموسَ والأنبياءَ، إنّي لم آتِ لأحُلَّ لكن لأُتمّم* الحقَّ أقولُ لكم إنَّهُ إلى أنْ تزولَ السماءُ والأرضُ لا يزولُ حرفٌ واحدٌ أو نُقطةٌ واحدةٌ من الناموس حتى يتمَّ الكلُّ* فكلُّ مَن يحُلُّ واحدةً من هذه الوصايا الصغار ويُعَلّمُ الناس هكذا، فإنَّهُ يُدعى صغيراً في ملكوتِ السموات. وأمَّا الذي يعمَلُ ويُعلّمُ فهذا يُدعى عظيماً في ملكوتِ السموات.

تأمل

طالع باستمرار وبلا ملل كتب المعلّمين التي تتكلّم عن العناية الإلهية، لأن هذه الكتب تقود الذهن إلى

الله هذا لم يكن بالسهولة المتوقّعة، لأنّه كيف يمكنه أن يكسر قراراً مُتّخذاً باسمه من قبل رجل تابع له؟ وما هو موقفه أمام الأمم الذين سيهزأون به إذا نقض هذا القرار؟ (البيتان ٥ و٦).

يبدأ الله بالبحث عن طرق تضطر النبي إلى الرجوع عن موقفه تجاه الناس أبناء جنسه، ويلجأ أولاً إلى ترك النبي تحت وطأة الجوع، مثله مثل الباقين، فمن المؤكد أنّ هذا الشيخ لن يحتمل القحط ممّا سيؤدي به إلى وقف العقوبة. غير أن غيرة هذا الشيخ لله لم تكن في الحسبان، فكانت له بمثابة الطعام واكتفى بها (البيتان ٧ و٨). ولمّا لم تكن إرادة الله أن يهلك النبي الصالح مع غير الصالحين بسبب الجوع، لجأ إلى طريقة أخرى، فأرسل الله الغربان للنبي لكي تطعمه. والغربان بحسب الاعتقاد القديم طيور بلا رحمة حتى أنّها لا تطعم أولادها، فأراد الله بهذه الطريقة أن يعلّم النبي أن تلك الطيور التي تشبهه من ناحية عدم محبّتها لأولادها وقساوة قلوبها، تحوّلت فجأة إلى خدّام لله تطعم غيرها: «هكذا، بما أنّ إيليا يتصرّف ويفكر كالأب الذي يكره أولاده، أرسل الله، الكلّي الحكمة، الغربان التي تكره أولادها إلى الذي يكره الناس». وانتظر الله عسى أن يغيّر ذلك موقف النبي ويليّن قلبه متمثلاً بتلك الغربان.

مع هذا كلّه ظلّ النبي متصلّباً وفضّل الموت جوعاً على أن يُترك الخطأة بلا عقاب. فقرّر الله إرساله إلى صرفة صيدا، إلى أرملة أمميّة (وثنية)، ما قد يدفع النبي إلى الرجوع عن قراره، إذ إنّ اليهود لا يأكلون أبداً عند الأمميّين. هذا لم يمنع النبي إيليا من طلب الطعام منها (البيتان ١٣ و١٤). ومع أنّ وضع المرأة حرّك قلب النبي قليلاً، إذ لم يكن عندها سوى وقعة طعام واحدة لها ولولدها قبل أن يلقيا حتفهما جوعاً، إلاّ أنّه عوض أن يطلب من الرب إرسال المطر وإيقاف العقوبة، طلب منه أن يعطيها طعاماً كافياً لها ولولدها (الأبيات ١٥، ١٦ و١٧).

عند هذا الحدّ طفح الكيل، فما كان من الله إلاّ أن أخذ نَفْسَ ابن الأرملة، فثارت على النبي لائمةً إيّاه على موت ابنها ومعيّرة إيّاه، فهي كانت تفضّل الموت جوعاً قبل أن ترى ابنها ميتاً بين ذراعيها. لقد أعطاها النبي قمحاً لأحشائها ولكنّه انتزع ثمرة أحشائها (البيت ٢١).

أدرك النبي أخيراً قصد الله، فموت الولد لم يكن حادثاً طبيعياً. لقد وضع الله النبيَّ في مأزقٍ لأنّه في اللحظة التي سيطلب فيها من الله إرجاع نفس الصبي سيجيبه الله بأنّ ابنه، أي شعبه كله، في الضيق ويطلب منه أن يرحمه بالمقابل (البيت ٢٣). فالله يريد خلاص كل الناس، لأنّه لا يُسرّ بموت الشرير بل ينتظر رجوعه عن طرقه فيحيا (حزقيال ١٨:٢٣)، وهو عندما يرى مجاري الدموع يتحرّك قلبه كأب ويشفق على الذين يرزحون تحت الجوع والضيق، لأنه يريد خلاص الخطأة بالتوبة.

حينئذٍ لم يعد للنبي من مجال إلاّ الخضوع لإرادة الله: «أخضع إيليا نفسه وقلبه وأذنيه لكلمات العلي، فأركعَ نفسه وجمّلها بالكلمات إذ قال: لتكن مشيئتك أيها السيد. أعطِ للكلّ المطر، والحياة للذي مات، وأحْيِ العالم ، أنت َ الله الذي هو الحياة والقيامة والخلاص. هب نعمة للناس والبهائم، لأنّك وحدك قادر أن تخلّص الكل بما أنّك محبّ للبشر» (البيت ٢٦).

بعد ذلك طلب الله من النبي أن يذهب إلى الملك آحاب ليعلن له الخبر السار بإرسال المطر من جديد على الأرض، وهكذا «ابتهجت الأرض وأعطت المجد للربّ، والمرأة استعادت

مشاهدة مخلوقات الله ومعرفة أعماله وتقويّه وتهيّئه للحصول على معانٍ نيّرة من معانيها الدقيقة الشفافة وتجعله يسير نحو إدراك مخلوقاته بوضوح.

ولتكن قراءتك لها في مكان قفر، بعيد عن كل الأشياء. تحرّر من الاهتمام الكثير بالجسد ومن الأشياء التي تسبّب الاضطراب، حتى تتذوق نفسُك طعم اللذة النابعة من حلاوة الفهم، اللذة التي تفوق كل حسّ، وتظل متمتعة بها ما دامت مأخوذة بها.

لا تتخذ أقوال الخبراء مثل أقوال المزيّفين الذين يرفضون الأقوال الإلهية حتى لا تظل ماكثاً في الظلمة إلى نهاية حياتك وتُحرَم من فائدتها.

أعكف على مطالعة الكتب المقدسة، لأن مطالعتها تكشف لك طريق الرؤية الإلهية الشفافة وإن لم تتذوق حالاً طعم حلاوتها في البداية. وهذا ناجم عن أن ذهنك لم يتنقَّ بعد ولا طرح عنه المادة.

وعندما تنهض لتصلّي وتتمّم قانونك ستجد انك مأخوذ بتأمل الكتب المقدسة التي طالعتها سابقاً بدلاً من التفكير في الأمور الدنيوية التي شاهدتها وسمعتها، فتنسى الدنيويات ويبدأ ذهنك

ابنه ا حيًّا ، وفرح النبي مع كلّ الكائنات وسبّح المحبَّ البشر وحده» (البيت ٢٩).

رأى النبي أن الناس ما زالوا يقترفون الشرّ، وأراد أن يفرض عليهم قصاصاً أعظم، فقال له الله: «أعرف غيرتك للصلاح وأعلم نواياك، إلاّ أني أشفق على الخطأة عندما يقاصصون بلا حدود. أنت تغضب لأنك بلا لوم، ولا يمكنك أن تسلّم بالواقع. أمّا أنا فلا أستطيع أن أسلّم بأن يهلك أحد، لأنّي وحدي محبّ للبشر» (البيت ٣٠). وعلى هذا الأساس يقرّر الله أن يأخذ النبي إليه ليعود ويأتي هو بنفسه إلينا، وهكذا ينهي القديس رومانوس قنداقه بالأبيات التالية: «بعد ذلك رأى السيد قساوة إيليا تجاه الناس، فقرّر الاهتمام بهم وأبعده عن الأرض التي يسكنونها قائلاً: ابتعد عن السكنى بين الناس، لأنّي أنا برحمتي سأنحدر لأصير إنساناً. اتركِ الأرض إذاً والعالم، فإنّك لا تحتمل خطايا البشر. أما أنا السماوي فسأعيش بين الخطأة وأخلّصهم من خطاياهم، أنا وحدي المحب البشر» (البيت ٣١).

«إذا كنتَ لا تستطيع أيّها النبي أن تسكن مع البشر الخطأة، كما قلت سابقاً، فتعال إذاً إلى هنا واسكن في مساكن الصدّيقين حيث لا توجد خطيئة. فإني أنا سأنزل، إني أريد أن أحمل على كتفيّ الخروف الضالّ وأعيده، وأهتف نحو الواقعين في الخطيئة: تعالوا إليّ أيّها الخطأة واستريحوا، لأنّي لم آت لأعاقب الذين خلقتهم، بل لأنتشل الخطأة من الإثم، أنا وحدي المحبّ البشر» (البيت ٣٢).

«هكذا فإنّ إيليا لما ارتفع إلى السماء، ظهر صورة للذي سيحدث في المستقبل: لقد اختُطف التسبيتي على مركبة ناريّة، كما يقول الكتاب، أمّا المسيح فارتفع على السحب مع القوات السماويّة. الأول أرسل رداءه الصوفي إلى أليشع، أمّا المسيح فأرسل إلى رسله المعزّي القدّوس الذي أخذناه جميعاً نحن الذين تعمّدنا، والذي به تقدّسنا» (البيت ٣٣).

عبيد أو أحرار

في أيام يكثر فيها الحديث عن الحرية بكل أشكالها قد يجد المسيحي نفسه مرتبكاً في تصنيفه لوضعه، إذ لا يفهم العلاقة، التي قد تبدو تناقضاً لدى البشر، بين الحرية والتعبُّد لله.

ما هي العبودية؟ العبد هو الإنسان الذي يتبع سيده في كل أمر ومكان، وينفذ أوامره دون أن يكون له حق إبداء الرأي في أي شيء. بالتالي العبودية هي عدم القدرة على اتخاذ أي قرار بل هي طاعة عمياء لأوامر المعبود. أما المعبود فقد يكون شخصاً أو حزباً أو فكراً أو حتى أمراً ملموساً، لكنه في كل الأحوال يصبح إلهاً للعبد. ولهذا السبب منع الله الإنسان منذ العهد القديم من عبادة الأوثان: «لا تدخُلوا إلى هؤلاءِ الشعوبِ أولئكَ الباقينَ معكم ولا تذكُروا اسم آلهَتِهم ولا تحلِفوا بها ولا تعبُدوها ولا تسجدوا لها» (يشوع٢٣: ٧)، «للرَّبِّ إلهكَ تسجُدُ وإيَّاهُ وحدَهُ تعبُدُ» (متى ٤: ١٠).

رغم هذا التحذير الواضح: «حينَما تتعدَّونَ عهدَ الرَّبِّ إلهِكُم الذي أمَرَكم به وتسيرونَ وتعبدونَ آلِهةً أخرى وتسجدون لها يحمى غَضَبُ الرَّبِّ عليكم فتَبيدونَ سريعاً عن الأرضِ الصالحةِ التي أعطاكُم» (يشوع ٢٣: ١٦)، بقي الإنسان يميل إلى عبادة الأوثان وكل أمر يبعده عن الله. لماذا يحصل هذا؟ لأنه بعد سقوط آدم في الخطيئة صارت الطبيعة البشريّة ميّالة إلى الشر أكثر من الصلاح. قبل

يتنقى رويداً رويداً. وهذا حسب ما جاء في الكتب: ان النفس تستعين بالمطالعة في صلاتها وبالعكس إنها تستنير بالصلاة أثناء المطالعة.

قبل أن يقبل الإنسان المعزي يظل محتاجاً إلى مطالعة الكتب الإلهية باستمرار وذلك لكي ينطبع في ذهنه ذكر الخيرات وتتأصل فيه الحركة نحو الصلاح ويحفظ نفسه من مسالك الخطيئة الصعبة. هذا، لأنه لم يحصل بعد على قوّة الروح المقصية عنه الضلال الذي يمنع تسرّب الذكريات المفيدة إلى النفس ويقودها إلى البرودة من خلال تشتت الذهن.

لأنه عندما تسيطر قوة الروح – الفاعلة به – على القوّة النفسية حينئذٍ تنغرس في القلب وصايا الروح مكان ناموس الكتاب فيبدأ بالتعلّم من الروح سرّياً ولا يعود بحاجة إلى مساعدة المادة المحسوسة. فإذا دام القلب يستمد تعليمه من المادة يظل الضلال والنسيان مرافقين التعليم بحكم الطبيعة، لكن عندما يكون التعليم مستمداً من الروح مباشرة تبقى الذاكرة محفوظة من الأذى.

القديس اسحق السرياني

أن يتعدى وصايا الرب كان الإنسان طاهراً يعيش في نعمة الله كإبن في محبَّة أبيه لم يعرف الخطيئة ولا رغب فيها. لم يتكبَّر ولم يطلب مجداً أعلى مما أعطاه الله. لم يكن طماعاً ولم يطلب شيئاً بجشع زائد. ولم تكن شهوات جسدية لدى ساكن الجنة بل لم يخطر في باله مطلقاً أن يتعدى وصايا الله لو لم يغوه العدو ويخدعه ، فعرف الشر وصار ميالاً إليه، وتحوّلت عادة الشرّ فيه إلى غريزة فطرية وصار من الصعب عليه أن يصدّ مطالب الطبيعة ويفارق خطيئته المعتادة. صار الإنسان عبداً للخطيئة حسب قول السيد: «إنَّ كلَّ من يعملُ الخطيئةَ هو عبدٌ للخطيئةِ» (يو ٨:٣٤). هكذا يسعى الشيطان باستمرار أن يخدع الإنسان لكي يخطف منه حريته ويستعبده للخطيئة، أما الله فيفعل عكس ذلك تماماً: لقد سعى الله منذ اللحظة الأولى لسقوط الإنسان أن يعرّفه على الحقيقة كي لا ينخدع بحيل الشيطان وكي ينتقل من العبودية إلى الحرية. وقد اكتمل هذا السعي بتجسد ابن الله الذي أرشدنا إلى الحق الذي يحررنا: «تعرِفونَ الحقَّ والحقُّ يُحرِّركم » (يو٨:٣٢)، وليس الحق إلا يسوع المسيح نفسه: «أنا هو الطريقُ والحقُّ والحياة» (يو ١٤:٦).

بالتالي الحقيقة التي ليس فيها خداع ليست أمراً فكرياً أو علمياً، بل هي شخص يسوع المسيح، ولكي ندركها ولا نعود ننخدع علينا أن نعيشها من خلال عيشنا للمسيح. لكن ألا تتناقض هذه الحرية التي حصلنا عليها مع عبوديتنا لله؟ كما قلنا سابقاً العبد هو الإنسان الذي يطيع سيده ولا تكون له إرادة بل يفعل إرادة سيده. على هذا المنوال تسلب الخطيئة إرادة فاعلها فيجد نفسه في معظم الأحيان مرغماً على فعل ما يبغضه: «لأنّي لستُ أفعلُ الصالحَ الذي أريدهُ بل الشَّرَّ الذي لستُ أريده فإيَّاهُ أفعلُ» (رو ٧:١٩). لكن المسيح عبر تجسده وعمله الفدائي الخلاصي الذي أتمّه على الصليب نقلنا من حالة العبودية إلى حالة البنوة: «أبانا الذي في السموات» (متى ٦: ٩)، «لا أعودُ أسمِّيكم عبيداً لأنَّ العبدَ لا يعلمُ ما يعملُ سيِّدُهُ، لكني قد سميتكُم أحبَّاءَ لأنّي أعلمتُكم بكلِّ ما سمعتُهُ من أبي» (يو ١٥:١٥). وهذا ما يؤكده بولس الرسول: «إذ لم تأخذوا روحَ العبوديَّةِ أيضاً للخوف بل أخذتم روحَ التبني الذي به نصرخُ يا أبا الآب، الروحُ نفسهُ أيضاً يشهدُ لأرواحِنا أننا أولادُ الله» (يو ٨: ١٥–١٦). هذا الارتقاء من العبودية إلى البنوة مهم جداً لأن الإبن كما يظهر من هذه الآيات يعلم ما هي مشيئة أبيه ويطيعها بكل إرادته أي يختلف عن العبد الذي يخضع لإرادة سيده مُكرَهاً.

بعد أن اتضحت الصورة في اذهاننا، علينا أن نجاهد لكي نبقى يقظين ولا ننخدع فننحدر بسهولة من رتبة أبناء الله إلى رتبة عبيد الخطيئة لأنه «واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك» (متى ٧:١٣).

عيد مار الياس

بمناسبة عيد النبي الياس التسبيتي يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الأربعاء ١٩ تموز ٢٠٠٦ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الخميس ٢٠ تموز ٢٠٠٦ في كنيسة النبي الياس بطينا.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb